مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد ١٧، العدد (٢)، لسنة ٢٠٢١

*College of Basic Education Researchers Journal*

ISSN: 7452-1992 *Vol. (17), No.(2), (2021)*

# ثلاثية الفاعل القيمي وأثرها في تعزيز الأمن البيئي

# The Trilogy of values Doer and Its Impact in Reinforcement of the Environmental Security

د. مصطفى بن أحمد الحكيم

**Dr/ Mostafa Ahmed El Hakim**

رئيس مؤسسة منارات الفكر الدولية

رئيس المركز الدولي للإستراتيجيات التربوية والأسرية

d.lahkimmostafa@gmail.com

( قدم للنشر في ٢٠٢١/٣/٨ ، قبل للنشر في ٨/ ٤/ ٢٠٢١ )

**ملخص البحث:**

في ظل ما تشهده البيئة من إفساد ممنهج، وتدمير متعمد، واستهتار بمقومات الحياة، وعناصر الوجود الإنساني؛ تمسي الحاجة ملحة لإعادة الاعتبار لمنظومة القيم التي تمثل في تاريخ الأمم الناهضة أساس البناء، وحجر الزاوية، وصمام الأمان. إضافة إلى المقاربات الأخرى القانونية والاجتماعية والاقتصادية التي تروم الحفاظ على البيئة، وتثمين مواردها، وحماية عناصرها... التي إن وُظفت في سياق تكاملي، وجهد جماعي ستكون لا شك عاملا من عوامل الحماية، ورافدا من روافد الأمن البيئي، والتقدم الإنساني، والسلامة الصحية.

وقد انتظم البحث –بعد هذه المقدمة– في مبحثين: اعتنيت في المبحث الأول بمفهوم القيم، ومادته اللغوية، والمعاني المتولدة منه بما يُمَكِّن من فهم أبعاد المفهوم ومقاصده وأبعاده ووظائفه، ثم عرضت في المبحث الثاني للقيم الناظمة للسلوك البيئي الإنساني، ثم أتيت بخاتمة جمعت فيها نتائج البحث وخلاصاته وتوصياته.

الكلمات المفتاحية: القيم . الأمن البيئي . التربية البيئية . السلوك الإنساني

ISSN: 7452-1992 *Vol. (17), No.(2), (2021)*


# Abstract

**According to what environment witnesses of systematic corruption, intended destruction, and underestimation of life's fundamentals and human existence elements, there is a critical necessity to reconsidering value system that represents the building bas, corner stone, and a safety valve in the history of rising nations in addition to the other legal, social, economical approaches aiming keeping the environment and estimating its resources, and protecting its elements. If these elements utilized in an integrated context and team effort, they will be a protecting factor and a bridge for environmental security, human progress, and health safety.**

**This research divided – according to this introduction – into two sections: the first of them investigated the value concept, its language origin, and its generated meanings that enable of understanding the dimensions of this concept, aims, and functions. The second section displayed the organizing values of the environmental human behavior. The conclusion included the research results, recommendations, and suggestions.**


**Keywords: Values- environmental security – environmental education- human behavior**

**مقدمة:**

في ظل ما تشهده البيئة من إفساد ممنهج، وتدمير متعمد، واستهتار بمقومات الحياة، وعناصر الوجود الإنساني؛ تمسي الحاجة ملحة لإعادة الاعتبار لمنظومة القيم التي تمثل في تاريخ الأمم الناهضة أساس البناء، وحجر الزاوية، وصمام الأمان. إضافة إلى المقاربات الأخرى القانونية والاجتماعية والاقتصادية التي تروم الحفاظ على البيئة، وتثمين مواردها، وحماية عناصرها... التي إن وُظفت في سياق تكاملي، وجهد جماعي ستكون لا شك عاملا من عوامل الحماية، ورافدا من روافد الأمن البيئي، والتقدم الإنساني، والسلامة الصحية.

نحتاج فيما نحتاجه إلى إعادة تشكيل وتأسيس علاقة الإنسان بالبيئة، ومن ثم نقترح بناءها على مستويات ثلاثة/قيم ثلاث:

– **التعمير**: باعتبار أن الإنسان مطالب بتعمير الأرض وتنميتها وإصلاحها، ودرء الخلل الواقع بها، أو المتوقع حدوثه بسبب عبث البعض وإفساده وإضراره بالبيئة.

– **التسخير**: عبر مستويين: * مستوى التوسل بها لمعرفة الخالق، وإدراك عظمته، والوقوف على قدرته، * ومستوى ثان: تسخيرها في خدمة وجوده، وتحقيق مقصد وجوده باعتبار أن الإنسان كائن مقاصدي.

– **التحرير**: تحريره من القيود التي تشل إرادته، وتغير طبيعته كالأنانية والأثرة وحب الذات الذي تسبب الاستغلال المفرط والتعسف المفضي إلى الإضرار بالبيئة.

يطمح هذا البحث لاستكشاف القيم المؤثرة في تغيير السلوك الإنساني في علاقته بالبيئة من التدمير إلى التعمير، ومن التخسير إلى التسخير، ومن الاستعباد إلى التحرير.

**وقد** انتظم البحث –بعد هذه المقدمة– في مبحثين: اعتنيت في المبحث الأول بمفهوم القيم، ومادته اللغوية، والمعاني المتولدة منه بما يُمَكِّن من فهم أبعاد المفهوم ومقاصده وأبعاده ووظائفه، ثم عرضت في المبحث الثاني للقيم الناظمة للسلوك البيئي الإنساني، ثم أتيت بخاتمة جمعت فيها نتائج البحث وخلاصاته وتوصياته.

## المبحث الأول: منظومة القيم: المفهوم والوظائف

تمثل القيم في تاريخ المجتمعات الروح السارية، والجوهر الأصيل، والأساس المتين الذي تتأسس عليه العلاقات الإنسانية، والروابط الاجتماعية، وتشكل الحصن الحصين من التأثيرات السلبية الوافدة، والضابط للتصرفات والمواقف والقرارات، فضلا عن عوائدها التنموية والحضارية. وقد حوت رسالة الإسلام قيما بانية، ومبادئ سامية، كانت الموجه لحضارته، والمحرك لنهضته، والمحصن لمجتمعه، في إطار منظومة قيمية شاملة تتنوع إلى قيم تربوية، واجتماعية، واقتصادية، وبيئية، وسلوكية...

### المطلب الأول: مفهوم القيم

تنتصب المصطلحات في بنية المشاريع الفكرية والنظريات العلمية أعمدة مؤَسِّسَة، ومفاتيح موصلة، ومفاصل رابطة تُساهم في حركة الفكرة، وتساعد على تشكل المعنى في قوالب مصطلحية تنقله من دائرة الإضمار إلى فضاء الإظهار، حيث تؤدي اللغة الحاملة بذلك وظيفتها التواصلية، وغاياتها التعبيرية.

لذا سنعمد في هذا المطلب إلى حصر الدلالات اللفظية والاستعمالات اللغوية لمصطلح "القيم" في اللغة العربية إفرادا وتركيبا، واشتقاقا ونحتا؛ من خلال استحضار مواطن وروده في القرآن الكريم، وبيان معانيه واستعمالاته كمّاً وكيفا.

يرجع مصطلح القيم في مأخذه اللغوي وجذره الأصلي إلى مادة "ق و م"، وقد ورد في القرآن الكريم باشتقاقات مختلفة، وصيغ متعددة (قوامون، قياما، أقيموا، قواما، مقاما، قَيِّما، مستقيما...)، وقد وجدنا هذه المادة اللغوية –بعد الإحصاء والاستقراء– تدور على المعاني التالية سنعمد إلى عرضها في هذا المحل تاركين عمليات التحليل والربط، وبيان وجوه التناسب والتناسق والانسجام بينها وبين مصطلح القيم إلى حين نظرنا في الأصول المؤسسة لهذا المفهوم، والوظائف المنوطة به.

ولن يتأتى لنا فهم مضمون مصطلح "القيم" وأبعاده ومقاصده وتطبيقاته إلا باستكناه معانيه، وتبين استعمالاته اللغوية، وتوظيفاته البيانية؛ بالنظر إلى أنك لن تجد في الغالب وأنت تتصفح أمهات كتب المعاجم والقواميس هذا المصطلح بالمفهوم المتداول الآن؛ لذلك نشير إلى المعاني الداخلة والمتولدة من مأخذه اللغوي:

– **رعاية الشيء وحفظه**: يقول الراغب الأصفهاني: «وقيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له»[١]، ومنه قوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)، وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾

(الرعد: ٣٣) أي حافظ لها.. ٤١٧. ومنه قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أي القائم الحافظ لكل شيء، والمعطي له ما به قِوَامُه[٢].

– **مِلاك الشيء وقِوامه، وما كان به كماله ونظامه:** يقول الراغب: «القيام والقوام اسم لما يقوم به الشيء أي يثبت، كالعماد والسناد لما يُعمد ويُسند به»[٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء: ٥) أي جعلها مما يمسككم[٤]، وقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٩٧) أي قواما لهم يقوم به معاشهم ومعادهم[٥]. يقول الكفوي في "كلياته" تأكيدا على هذا المعنى: «قوام الأمر: نظامه وعماده ومِلاكه الذي يقوم به»[٦].

–**الانتصاب لفعل الشيء أو العزم على إنفاذه:** يقول ابن فارس: «القاف والواو والميم أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدُهما على جماعةِ ناسٍ، وربَّما استُعِير في غيرهمْ، والآخَر على انتصابٍ أو عَزْمٍ»، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ (المائدة: ٦) بمعنى انتصبتم لإقامة الصلاة، وعزمتم على أدائها.

– **الثبات والرسوخ:** منه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ (الأنعام: ١٦١)، أي: ثابتا مقوما لأمور معاشهم ومعادهم[٧]، وقام الحق: ظهر وثبت[٨].

– **لزوم المنهج المستقيم واعتدال القصد ووسطية الوجهة:** منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت: ٣٠)، وقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢)، وقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت: ٦)، وقوله: وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (الفرقان: ٦٧) أي وسطا وعدلا[٩].

- **توفية الشيء حقه:** منه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (المائدة: ٦٨) أي: توفون حقوقهما بالعلم والعمل[١٠]. وقوله تعالى في كثير من المواضع: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يقول الراغب في ذلك: «لم يأمر تعالى بالصلاة حيثما أمر، ولا مدح به حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة تنبيها أن المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها»[١١].

**المطلب الثاني: وظائف القيم**

لا شك أن من يتأمل جليا هذه المعاني –السالفة الذكر– مجتمعة يجد الترابط بينها وبين مفهوم "القيم" في خصائصه ومقاصده ومخرجاته، وبخاصة معاني: الثبات والرسوخ والاعتدال والاستقامة والرعاية والنظام. ومن ثم نجمل هذه الوظائف فيما يلي:

– **قيمٌ بانيةٌ**: إن من وظائف القيم تكوين التوجهات الاعتقادية، وبناء التصورات، وتوجيه التصرفات، وإنبات القيم التأسيسية التي تنبثق من رسالة الإسلام السامية، وقيمه العالية، وأصوله الثابتة.

– **قيمٌ مُحَصِّنة**: تشكل القيم في تاريخ الأمم الناهضة أساس البناء، وعماد التغيير، ووسيلة التحصين، وصمام الأمان التي من شأن تمثلها، والالتزام بها، والسير على مقتضاها، واستحضار هديها أن يجعل البناء متينا، والمجتمع متماسكا، صامدا أمام الزلازل والعواصف، وبذلك تحقق القيم معنى الأمان والحماية والتحصين.

– **قيمٌ دافعةٌ رافعةٌ**: هذه القيم البانية والمحصنة حين تسري روحها في المجتمع تخلق في الفرد الحافزية على العطاء، والقدرة على الإنتاج، والفاعلية في العمل، والانسجام في الرؤية، والوضوح في القصد باعتبارها منظومة يتصل بعضها ببعض، فلا يستقيم حديث عن قيمة "العمل" في الإسلام –على سبيل المثال– دون استحضار ضمائمه من "الإحسان"، و"الإتقان"، و"الصدق" وغيرها من القيم التي تشكل وحدة منسجمة، ولحمة واحدة، ونسقا متصلا.

**المبحث الثاني: ثلاثية الفاعل القيمي وأثرها في تعزيز الأمن البيئي**

**المطلب الأول: من التدمير إلى التعمير**

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تبرز وتعري طبيعة هذا الإنسان وتصفه بالظلم والكفر والهلع والطمع والقنوط والجهل والخسران والإفساد والتدمير... إلا من تداركته رحمة الله، وشملته ألطافه، ودخل في زمرة المؤمنين الموحّدين، الذين يشهدون أن لهذا الكون المترامي الشاسع خالقا حكيما، مدبرا متصرفا في ملكوته ﴿كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١). لم يتركهم لأهوائهم وعقولهم تقذف بهم في مهاوي التيه والعبث والضلال، بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين، أوضحوا لهم الطريق، ورسموا لهم الغاية من وجود الإنسان وخلقه، وبينوا لهم الحقيقة التي اختلفت حولها الأفهام، ألا وهي حقيقة الألوهية.

وهؤلاء هم الذين استثناهم الله من الخسران والبوار، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:٢-٣). وهم الذين امتدحهم الله تعالى في عدة آيات من الكتاب العزيز بأوصاف جليلة، وخصال كريمة، ومآثر عظيمة. يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣)، وقال أيضا: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح:١٨)، وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:٨).

لذلك هو محتاج -بالنظر لما جُبل عليه- إلى قيم تحصنه، ومبادئ ترفعه، وضوابط تُرَشِّد حركته في الدنيا، وتوجه سلوكه، وتنظم علاقاته مع المخلوقات والكائنات. وقد جعل الله المقصد العام من وجود الإنسان عمارة الأرض، وحسن الانتفاع بخيراتها من غير إسراف أو إضرار أو تخريب، قال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (هود:٦١) يقول

صاحب "التحرير والتنوير" مجليا هذا المعنى: «والاستعمار: الإعمار أي جعلكم عامرينها... ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والزرع والغرس لأن ذلك يعد تعميرا للأرض»[١٢].

لذلك كان "التعمير" و"عمارة الأرض" من القيم الناظمة لعلاقة الإنسان بالبيئة، باعتبار أنه مطالب بتعمير الأرض وتنميتها وإصلاحها، ودرء الخلل الواقع بها، أو المتوقع حدوثه بسبب عبث البعض وإفساده وإضراره بمواردها وخيراتها. يقول علال الفاسي: «المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ **نظام التعايش فيها**، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع»[١٣].

وهذا النزوع إلى التخريب والتدمير كما نراه في عصرنا إنما هو تجل من تجليات النزوع الإنساني المنفلت من الضوابط، المتحرر من القيم، المتمرد عن المنظومة الأخلاقية الربانية، لذلك كانت إشارة الملائكة قاصدة لهذا المعنى في قولها: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) (البقرة: ٣٠)، وما الإضرار بالبيئة وتدميرها إلا مظهر من مظاهر الإفساد، وملمح من ملامح افتقاد منظومة القيم الأخلاقية؛ كما يُستفاد من قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥).

**المطلب الثاني: من التخسير إلى التسخير**

إن الإنسان في الإسلام مخلوق مكرم، فهو مركز الكون ومحور الحضارة، أكرمه الله تعالى بالعقل والإدراك وخلقه في أفضل هيئة، وأكمل صورة، وأحسن قوام، وأطلق إرادته الحرة من القيود والأغلال التي

تكبلها، وأسجد له ملائكته الأطهار، ونفخ فيه من روحه، واستخلفه على أرضه، وسخر له الكون بكامله أداة طيعة في سبيل خدمته، والقيام على شؤونه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلا، وأرسل إليه رسله مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتب فيها هدى وشفاء ورحمة لتدله على الله خالقه الحكيم، وترشده إلى حقيقة وجوده، وسر حياته ومماته، يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء:٧٠).

وتتعدد أوجه ومظاهر هذا التكريم الإلهي للإنسان، بتعدد أفضال الله وأنعمه ومآثره، يقول الإمام ابن القيم الجوزية في سفره القيم "مدارج السالكين": «اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته الذين هم أهل قربه استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه وإليه... فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات»[١٤].

وقد سخر الله تعالى له الكون بجباله وسهوله، وأنهاره ووديانه، وأبراجه وسمائه، وأرضه وجَوِّه، وبره وبحره. يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:٢٩)، وقال كذلك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٣)، وذلل له الأرض ليمشي في مناكبها، ويأكل من رزقها، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (النشور:١٥). قال ابن القيم مجليا معنى هذه الآية: «أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولا منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها،

وأخبر سبحانه أنه جعلها مهادا وفراشا وبساطا وقرارا وكفاتا، وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركاتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها، وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح، وتخرج له كل مليح، ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها، وتضمه وتأويه، وتخرج له طعامه وشرابه. فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه، وأبعد من الأذى، وأقرب إلى الخير»[١٥].

وسخر الله له الشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم والكواكب، يقول جل وعلا مبينا ما أسبغه على الإنسان من نعم وفضائل جُلى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤)، وقال كذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾( لقمان:٢٠).

لذلك نجد أن قيمة التسخير تمشي في مسارين، وتتجلى في مستويين:

- التوسل بها لمعرفة الخالق، وإدراك عظمته، والوقوف على قدرته.
- تسخيرها في خدمة وجوده، وتحقيق مقصد الخلق؛ باعتبار أن الإنسان كائن مقاصدي.

**المطلب الثالث: من الاستعباد إلى التحرير**

تلك الأمراض التي ذكرناها آنفا تلازم النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها، لأنها جِبِلَّة وطبع

مترسخ في الإنسان، لا يُخلصه منها إلا الإيمان والعمل الصالح، ومجاهدة النفس ورياضتها، دفعا لتلك الأدواء النفسية؛ كشيمتي الظلم والأثرة المتأصلة في النفس البشرية، وقديما قال الشاعر العربي :

**والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم**

لذلك ينبغي –في سبيل إعادة ضبط العلاقة بين الإنسان والبيئة على سلم القيم– تحريره من القيود التي تشل إرادته، وتغير طبيعته كالأنانية والأثرة وحب الذات، وحب الذات الذي تسبب الاستغلال المفرط، والتعسف المفضي إلى الإضرار بالبيئة.

فتحرير البيئة مما تعيشه من استعباد واستغلال مدمر، مدخله تحرير الإنسان من أنانياته البغيضة، ونزعاته الفاسدة، وتطلعاته المنفلتة من القيم، المائلة إلى السيطرة والهيمنة؛ وقد غذى هذا النزوع منطق السوق، وثقافة الاستهلاك، والنيوليبرالية التي شكلت داعما ومساعدا لهذا الواقع البئيس الذي يمعن في استغلال الأرض واستنزاف ثرواتها دون استحضار لقيم العيش المشترك، ومستقبل البشرية وأجيالها اللاحقة، وواقع ومستقبل الكائنات الأخرى التي ترتبط مع الإنسان في أخوة ممتدة، ورباط عميق، حيث تشكل امتدادا للأخوة الإنسانية؛ **فالأخوة الوجودية** –بما هي رباط يربط الموجودات من جميع الكائنات الحية والجمادات برباط وثيق– تعني فيما تعنيه بناء هذه العلاقة على أسس الاحترام والتقدير، وقد «**وجد بديع الزمان النورسي بإحساسه الصافي أن هذه الأخوة موصولة بمفهوم الزمن الانتسابي، إذ يشعر العبد المنسب أنه لا يشارك الموجودات في أخوة العبادة لله وحسب، بل يتعدى ذلك إلى مشاركتها في أخوة الوجود**»[١٦].

ISSN: 7452-1992 *Vol. (17), No.(2), (2021)*

وحين جعل الله البيئة محققة لمنفعة الإنسان، طيعة للانتفاع بها، والاستفادة منها، مسخرة لتحقيق مقاصد وجوده؛ إنما جعل ذلك على سبيل الخدمة والتيسير، وليس على سبيل الاستعباد والصراع والهيمنة.

**خاتمة:**

إن من شأن تمثل هذه القيم الثلاث واستلهامها في واقع الإنسانية المعاصرة أن يدفع عنا أخطارا محدقة، وويلات قادمة، وتهديدات متلاحقة تتربص بالوجود الإنساني والبيئة المحيطة، وحتى نعيد الوفاق بين الإنسان والطبيعة حسب تعبير جان ماري بيلت[١٧] نحتاج إلى أن نولي اهتمامنا لهذا العامل القيمي، وندرك أن معالجة ما أصاب البيئة ولحقها من تدمير واستنزاف ليس قاصرا على المقاربات القانونية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بل لا بد من إعادة الاعتبار للمدخل القيمي، والمنظومة الأخلاقية التي تَعتبر رعاية البيئة وحمايتها مقصدا وجوديا، وضرورة أخلاقية تنتقل بالإنسان من التدمير إلى التعمير، ومن التخسير إلى التسخير، ومن الاستعباد إلى التحرير.

**الهوامش:**

[١] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٤١٧.

[٢] المصدر نفسه: ٤١٧.

[٣] المصدر نفسه: ٤١٧.

[٤] المصدر نفسه: ٤١٧.

[٥] المصدر نفسه: ٤١٧.

[٦] الكليات لأبي البقاء الكفوي: ٧٢٨.

[٧] المفردات في غريب القرآن: ٤١٧.

[٨] الكليات: ٧٢٩.

[٩] الكليات: ٧٢٨.

[١٠] المفردات في غريب القرآن: ٤١٨.

[١١] المفردات في غريب القرآن: ٤١٨.

[١٢] التحرير والتنوير ١٠٨/١٢.

[١٣] مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها لعلال الفاسي: ٤٥-٤٦.

[١٤] مدارج السالكين ١٨٧/١.

[١٥] الفوائد لابن القيم: ١٧.

[١٦] مفاتح النور: ٣٤٨-٣٤٩.

[١٧] راجع كتاب: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة لجون ماري بيلت.

**لائحة المصادر والمراجع:**

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. دار المعرفة: بيروت، ط1، 1418هـ/1998.

. الكليات لأبي البقاء الكفوي. تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٨٩م.

. التحرير والتنوير. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر: تونس، ١٩٨٤م.

. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها لعلال الفاسي. مؤسسة علال الفاسي: الرباط، ط٤، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ضبط وتحقيق رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع: القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

. الفوائد لابن القيم. دار الفكر: بيروت–لبنان، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

. مفاتح النور لفريد الأنصاري. معهد الدراسات المصطلحية: فاس/مركز النور للدراسات والبحوث: تركيا/كلية الآداب والعلوم الإنسانية: طهر المهراز فاس، ٢٠٠٣.